جناية شبرا

مررت مُبكّراً في الصباح بدار بوليس الازبكية في ميدان باب الحديد ، ودخلت على حضرة المأمور أروم محادثتهُ لعلّي أن استفيد منهُ خبراً ما لجريدتي « الأيام » التي أنشرها في مصر منذ عهدٍ بعيـد . وكانت بيني وبين هذا الموظّف النشيط صداقة قديمة العهد لم يكن يمنعني من أجلها شيئاً يجيزهُ لهُ القانون . وفيما نحن نتحدّث سمعنا ضجيجاً عالياً في باحة الدائرة ، وصارخاً يصرخ ملء فيه : أين المأمور ؟ أين المأمور ؟ فالتفتَ اليَّ صاحبي وقال : انَّ خلف هذا الصياح أمراً جللاً . فتبسمت وقلت : ذلك ما جئت اليك من أجله . ولم اكد ألفظ الكلمة الأخيرة حتى دخل علينا رجل فوق الخمسين من العمر تدلُّ ملامحهُ على القلق والخوف . ولم يتمهَّل ريثما يسألهُ صاحبي عما يريد من مفاجأتهِ لنـا على تلك الصورة بل قال : تفضَّل يا حضرة المأمور الى منزلي نمرة ١٣ بشارع سلامه في شبرا ، فقد ارتُكِبَت الليلةَ فيهِ جناية فظيعة . انَّ يداً اثيمةً امتدَّت الى ابنتي في سريرها فقتلتها شرَّ قتلة . . مسكينة ادماء ! واهاً عليكِ يا ادماء !

فقال المأمور وقد مدَّ يدهُ الى التلفون : ومَن القاتل ؟

فأجاب الرجل : لا أعرفهُ يا سيدي . اننا أطلنا السهرَ الليلة البارحة اذ كنَّا نعدُّ المعدَّات لحفلات هذا النهار ، فقد كان اليوم موعداً لزواج ادماء بابن عمّها ووارثي الوحيد بعدها ، ونمنا على أن نبكّر الى العرس فبكّر الينا المأتم

وفيما كان الرجل يتكلم ، كان المأمور قد أخذ يخاطب بالتليفون وكيل النيابة العمومية

ولم تمضِ الاَّ دقائق قليلة حتى وقفت بنا العربات أمام المنزل المعيّن . وكنتُ

قد استأذنتُ صديقي في مرافقتهِ فركبت الى جانب والد ادماء ، وفاتحتهُ الحديث قائلاً : ألا تشرّفني بمعرفتك يا سيّدي ؟ أما انا فاسمي : وسيم الريّان صاحب جريدة « الايام » ورئيس تحريرها فقال : وانا فرج الله خوري تاجر مصوغات وجواهر في الخان الخليلي

وكانت باحة المنزل حين وصولنا قد كادت تغصّ بالناس وهم يتهامسون بينهم؛ فامر المأمور رجالهُ بتفريقهم ، ثمَّ دخل ودخلنا وراءه فلقينا الخادمة تبكي بمرارة وتتأوّه على سيدتهـــا . وكان هنالك أيضاً شابٌ في نحو الثلاثين من العمر يروح ويجيء قلِقاً مضطرباً ، ولم يكن في عينيهِ اثر للبكاء قط ؛ غير انَّ بياض المقلتين كان قد تحوّل الى احمرار قرمزيّ كأن الدم جال فيهما بدَلَ الدمع

ثمَّ سأل المأمور صاحب الدار عن مكان وجود الجثة ، فمشى امامنا الى غرفة في أقصى المنزل وقال : هنا . . هنا غرفة أدماء . ودخلنا فابصرنا على سرير في احدى الزوايا فتاةً شاحبة اللون ، واحدى يديها ملقاة على جانبها الأيسر حيث تدفّق الدمُ فضرّج ملابس نومها البيضاء واغطية فراشها . وهي ما تزال في السرير كأنها نائمة نومةً طبيعية ، ممّا دلّ على أن قاتلها فتك بها في خلال رقادها . وكانت على الارض ، حذاء السرير ، سكّين حادّة من السكاكين التي تُستعمل في مطابخ البيوت ؛ وهي ملوّثة بالدم أيضاً . أما الجاني فلم يكن أحد يعرف شيئاً عنهُ ؛ غير انّ خفير الحيّ شهد بعدئذٍ بأنهُ أبصر في المنزل المقابل غرفةً بقيت مُنارةً معظمَ الليل ، وخيالَ شابٍّ كان يروح ويجيء فيها حيناً بعد حين . ثمَّ انطفأ نورها في نحو الساعة الثالثة صباحاً

وأثّر فينا جميعنا منظر الجثة وعلى مقربة منها الآلة القاتلة فارتعشنا واقشعرّت ابداننا . وكان الطبيب قد دخل الغرفة حينئذٍ ، فجسّ نبض الفتاة ، ثمَّ انحنى باذنه على صدرها يتسمّع خفقان قلبها . وكأنما خامرَهُ شكٌّ في موتها فأخذ مرآة وادناها من فمها برهة ، ثم تأملها فأبصر عليها شبه غشاوة مما دلهُ على انهُ لم تزل في ذلك

الجسم بقية من الحياة . فالتفت الينا وقال : هي حية لم تمت بعد ! وكأن لفظة الحياة نبّهت خطيب الفتاة فأجفل وتقدّم خطوة الى السرير محملقاً في الطبيب كمن فوجىء بما لم يكن يتوقع . أما الأب فترامى على أقدام الطبيب وهو يقول لهُ : أحيها . . . برّبك أحيها . ثمَّ جثا يصلّي

ورأيت في تلك الساعة ما لم أرَهُ من قبل : أباً جاثياً يدعو الله وملء نفسه خشوع ورجاء وملء ناظريه ذلّة وحزن ؛ وعاشقاً تتنقّل نظراته من السرير الى الطبيب الى السكّين ؛ ورجالَ حكومة واجمين ينظرون بلهفة وأمل ؛ وطبيباً أحدقت به القلوب كأنّ كهربائية انتقلت منها الى يديه فحركتهما على ذلك الجسم المسجّى بدون حراك . ورأيتني وحدي في ذلك الموقف ثابت الجأش أرى وألاحظ ، وأعي غير ذاهل ، حتى لقد ظننتني اسمع خفقة كلّ قلبٍ في كلّ صدر ، واحسّ دبيب كلّ خاطرٍ في كلّ ضمير

حينئذ أشار الطبيب فخرج الجميع من الغرفة ، واقام هو وحده يعالج الفتاة . وبثّ المأمور رجاله في المنزل وحواليه ، ثمَّ أخذ في التحقيق الأوّليّ فعرف أنّ ربّ البيت يسمَّى فرج الله خوري وأنّه يتّجر في الخان الخليلي بالمصوغات والحجارة الكريمة ، وأن ابنته وحيدة لهُ واسمها أدماء وقد توفيت والدتها وهي في نحو الخامسة من عمرها فربّاها ابوها وأدّبها في المدارس ولم يشأ أن يتزوج ثانية حبًّا بها وغيرة عليها . امّا الشاب خطيب ادماء فاسمـــه سليم خوري وهو ابن أخٍ للخواجا فرج الله ؛ هاجر بعد وفاة ابيه الى الترانسفال واقام فيهـــا نحواً من عشر سنوات ، ثمَّ جاء القاهرة للتزوّج بأدماء والاقامة في هذا القطر

وفي نحو الساعة التاسعة جاء وكيل النيابة العمومية وشرع في التحقيق الدقيق ظم يلبث أن توصّل الى معرفة الجاني ؛ فان الخادمة اطلعتهُ على علاقات أدماء بفتىً يدعى «فؤاد اليافي» يسكن منزلاً مجاوراً . وكان كثيراً ما يحادث أدماء من النافذة

متى خيّم الليل ونام الخواجا فرج الله . وكانت الخادمة تنقل رسائله الى سيدتها وتحمل أجوبتها اليه ؛ قالت وأن آخر رسالة جاءت بها منه كانت في نفس الليلة التي ارتكبت فيها الجناية وقد ناولها اياها بيدٍ مرتجفة وفي نظراتهِ معنى الاضطراب والغضب . . . وعثر وكيل النيابة على تلك الرسالة تحت وسادة ادماء فاذا هي هذه :

« وعدتِ ثم أخلفتِ . ويلٌ لكِ يا ظالمة ! أعقبى حُبّنا ان تكوني زوجةً لسواي ؟ ؟ تالله لن يكون ذلك ابداً . ليس والدك الذي أراد ، بل أنتِ التي آثرتِ ابن عمك عليَّ . كذبتِ في غرامكِ ، كما كذبتِ في عهودكِ . أمّا أنا فلن اكذب في عزمي . آليتُ ألاَّ يسعد ابن عمّكِ بك ، وأشقى أنا بدونك . الويل لي اذا كان المأتم غداً بدلاً من العرس ! ! »

فؤاد

ثمَّ طرق رجال البوليس منزل فؤاد الياقي وقد اقتنع وكيل النيابة كلّ الاقتناع بأنّ فؤاداً هو الجاني لا غيره ، وبأن الذي دفعه الى ارتكاب الجريمة انما هو الغيرة والغرور . ومما ايّدَ هذا الاقتناع أن فؤاداً لم يبت ليلتهُ كلَّها في منزلهِ ؛ فقد جاء في نحو الساعة السابعة مساء ، وخلا بنفسهِ في غرفتهِ الخاصة دون ان يتناول طعام العشاء . ولما افتقدَه أهله في الصباح لم يجدوه ، ولكنهم وجدوا رسالة منهُ على مكتبهِ . فأمرَ وكيل النيابة بها فاذا فيها ما يأتي :

الى والديَّ العزيزين

ليس في استطاعتي ان أشهد غداً عرس جارتنا ادماء لأن الغَيرة تأكل قلبي لذلك أنا ذاهبٌ الساعةَ الى حيث لا أدري . ومتى شفيَت نفسي من آلامها عدتُ اليكما . سامحا زلّتي ، وترقّبا أخباري

فؤاد

ودقّقتِ النيابة في استجلاء حقيقة العلاقات بين فؤاد وادماء ، فوقعت على رسائل كثيرة في حوزة الفتاة ازالت كلَّ شبهة عن غرام فؤادٍ وغيرته . واتصلت بها من شهودٍ كثيرين امور تافهة في حدّ ذاتها ، ولكنها اذا أضيفت الى مجمل القرائن

كانت دلائلَ قوية على ثبوت الجريمة على ذلك الشاب . ولما توافرت الأدلّة على هذا الشكل أمرت النيابة بتعقّب الجاني، وضيّقت عليهِ سُبُل الفرار من القطر المصري بما بثّتهُ من العيون والارصاد

وفي ذلك النهار نفسهِ ورد على نيابة مصر تلغراف من بوليس الاسكندرية يُفيد القاء القبض على المتهم وهو يتأهب للسفر الى أوروبّا على احدى البواخر . فجاء هذا دليلاً جديداً على أنّ فؤاداً هو الجاني ، لأنّ سفرَه الفجائي لم يكن الاّ بغيةَ الفرار من وجه القضاء والعدل

واتّصل خبرُ الجنـاية بصحف العاصمة فنشرتهُ ، كعادتها في أمثاله ، مقتضباً ومذيّلاً بكلمات الثناء على مهارة النيابة العمومية ، وتيقّظ رجال البوليس . أما أنا ، وقد رأيتُ بعيني ، وسمعت بأذني ، فاني رويتُ الحادث في « الأيام » مسهباً في تفصيل وقائعهِ كلّ الاسهاب . ثمّ قلت في ختام كلامي : انّ على النيابة أن لا تغشى عينيها الأدلّةُ التي اعتبرتها مثبتةً للجريمة على فؤاد افندي الياقي ، فقد يحتمل ان تكون تلك الأدلة من نحو الشذوذ في الاتفاق فيكون فؤاد بريئاً من التهمة التي ألصقها بهِ نكد الحظّ

لم أقل ذلك عفوَ الخاطر او من قبيل التفلسف في الامور ؛ وانما بنيت قولي على توافرِ عقائد في نفسي حسبتها براهين تجيزُ ليَ نفيَ التهمة عن فؤادٍ ، والقاءها على عاتق سواه . فعزمت على ان استكشفَ الحقيقة مهما اقتضتهُ من عناء ومال ، لأنّ الصحافي الماهر هو مَن بذل جهدهُ لمعرفة الحقائق ، ثم سبق الى نشرها ؛ وانمـا بهذين اشتهرت « الأيّام » ومشت في طليعة الجرائدِ العربيّة الكبرى

أمّا شكوكي فبدأت حيث بدأ اقتناع النيابة العمومية . هي كانت ترى كلّ شيء ايجاباً في حين كنت أراهُ أنا سلباً . فغيرة فؤاد وتهديدهُ ، وسهرهُ وقلقهُ ، ورسالتهُ الى والديهِ ، وسفرهُ الى الاسكندرية ، وعزمهُ على مغادرة القطر ، كانت جميعهـا

دلائل وقرائن عليهِ في نظر مَن يأخذ الأمور بظواهرها . غير انَّ النيابة ذهب عن بالها ان تبحث ، في الدرجة الأولى ، عن الطريق التي سلكها فؤاد الى الغرفة النائمة فيها أدماء حتى تمكَّن من ارتكاب الجناية . أمَّا أنا فلم أغفل هذا الأمر قط ، فقد عرفتُ أنَّ الخواجه فرج الله أقفل بيدهِ باب المنزل قبل أن نام ، وترك المفتاح في ثقب الغال من الداخل . ثمَّ علمت انَّ الخادمة ، لمَّا أفاقت في الصباح ، وجدت الباب مفتوحاً فاستنكرت ذلك كما استنكرهُ سيّدهـا والخواجه سليم ايضاً . ولو تنبَّهَ رجال التحقيق الى انَّ الغال لا يمكن فتحهُ بمفتاحٍ من الخارج ، ما دام انَّ المفتاح متروك في ثقبهِ من الداخل ، لأدركوا مثليَ أنَّ الجاني إمَّا أن يكون غريباً ، وإمَّا أن يكون بعضَ أهل أدماء . فان كان الأوَّل اقتضى أن يكون لهُ شريك ممَّن في المنزل فمكَّنهُ من الدخول ؛ وإن كان الآخر وجب ان يكون أحد اثنين : إمَّا الخادمة ، وإمَّا الخواجه سليم . وأمَّا أن يكون الجاني قد دخل البيت من غير بابهِ فما لم يكن معقولاً قط لأن العلوَّ شاهق جدًّا ، والبيت مطلٌّ من جميع جهاتهِ على الشوارع المنارة حيث الخفراء والمارَّة لا يبرحون بين رواحٍ ومجيءٍ . أضِفْ الى هذا كلهِ انَّ البرد كان قارساً في تلك الليلة ، وأن النوافذ جميعها بقيت مقفلةً حتى الصباح

ولما تشبَّعت من هذهِ الحقائق بحثت عن سيرة الخادمة مُنقباً مستقصياً فعرفت أنها قديمة العهد في منزل الخواجه فرج الله ، وأنها اعتنت بادماء بعد وفاة والدتها ، وحنَت عليها كما لو كانت أمَّها الحقيقية ، وأحبَّتهـا باخلاصٍ شديد ، فكانت لها خادمةً وأمًّا وصديقةً معاً . أوَ بعد هذا ما يستوقف شبهاتي عليها ؟ ولكنني وقعت حينئذٍ في حيرةٍ شديدة : فلا ظنوني بواقفة عنـد الخواجه فرج الله ، ولا شكوكي بمتقلةٍ الى الخواجه سليم . ذلك والدٌ وهذا خطيبٌ وابن عمّ

فمنِ الجاني اذاً ؟ أشيطانٌ من جهنم ، أم ملكٌ من السماء ؟ ؟

ولقد حاولت كثيراً أن أذهب مذهبَ النيابة العمومية في اتّهام فؤاد الباقي فلم

استطع . وزادني تشبثاً في رأيي هذا أنَّ فؤاداً لم ينكر الجريمة كلَّ الانكار فقط ، بل بكى بُكاءً مرًّا حين درى بها اشفاقاً منهُ وحناناً على ادماء . وقد جرَّب اقناع رجال التحقيق بأنَّ تهديدهُ لحبيبتهِ لم يكن الاَّ تهديداً كاذباً حاول ان يتعلَّق بهِ ، وهو آخر سلاح كان قد بقيَ لهُ ، كما يحاول الغريق التعلُّق بالطحلب في الماء ، وان عزمهُ على السفر لم يكن الاَّ يأساً وقنوطاً لأن نفسه لم تكن تطيق ان يرى أدماء لسواه . على انَّ كلَّ ذلك لم يفدهُ شيئاً ، بل أحالتهُ النيابة العمومية على محكمة الجنايات ليحاكم أمامها كقاتل متعمد . وراجعتُ نفسي مراراً في اتهام الخواجه سليم خوري فما ازددتُ الاَّ اعتقاداً بكونهِ الجاني الاثيم . فقد تبيَّنتُ أموراً جديرةً بالاعتبار ، أغفل وكيل النيابة بعضها ، وحملَ بعضها الآخر على محامل شتى . من ذلك : أنَّ الخادمة عرفت السكّين التي طُعنت بها أدماء أنها سكّين مطبخها ، مما دلَّني على أنَّ اليد التي استعملتها وصلت الى مكانها بدون عناء . وهل يُعقل أنَّ قاتلاً متعمداً يجيء ليقتل ، تحت جنح الليل ، فيجيء بدون سلاح على نيَّةِ أن يجد لهُ سلاحاً ما في المكان الذي نوى الجناية فيهِ ؟ ومن ذلك انَّ الجاني كان على يقينٍ من ان ادماء لا تقفل بابها من الداخل في الليل . وانَّى لغريبٍ عن المنزل أن يكون على بيّنةٍ من هذا الأمر ؟ ومن ذلك أيضاً انَّ سليماً كان بحسَب الطعنة قاتلة ؛ فلما فاجأهُ الطبيب بقولهِ إنَّ ادماء حيَّة لم تمت ، أجفل في مكانهِ اجفال مؤملٍ بوغتَ بضياع أملهِ . ومن ذلك أخيراً انَّ سليماً كان أشدَّ الشهود رغبةً في القاء التهمة على فؤاد . وكانت هذهِ الرغبة تبدو عليهِ في أقوالهِ وحركاتهِ جميعها . فكلُّ ذلك قوَّى اعتقادي بأنَّ اليد التي جنت انما هي يدُ سليم دون سواه . ولكنَّ إقدامي على اتهام الرجل في « الأيام » كان محفوفاً بالخطر . فالبيّنات على خطورتها كان يمكن دحضها بمثلها . ولذلك عوَّلت بعد التفكير الطويل على كتمان شكوكي في نفسي ، مع مواصلة التحرّي الدقيق . وكان أوَّل خاطر خطر لي أن ابحث عن ماضي سليم وتاريخهِ في

الترنسڤال . فأرسلت رسالةَ برقية الى زميلي صاحب جريدة « جوهنسبورج دايلي نيوز » في مدينة جوهنسبورج أطلعتهُ فيها على دخائل نفسي وطلبت اليهِ ، بما للزميل على الزميل من الحقوق ، أن يوقفني على حقيقة سليم ؛ فجاءني تلغراف منهُ بعد أيام قصيرة محتوياً على هذه الكلمات « شكوك في محلّها . التفصيل مع البريد »

وكانت ادماء في خلال هذه المدة قد تماثلت للشفاء ، وأخذت تعاودها العافية على مهل . اما شهادتها لدى وكيل النيابة العمومية فكانت قاصرةً على أنها بادلت فؤاداً المحبة ووعدتهُ بالزواج ، ولكنها أُكرهت على النكث بعهدهـا أمام ارادة والدها وإلحاحهِ الشديد وقد أطلعت خطيبهـا سليماً على علاقاتها السابقة بفؤاد ولم تكتمهُ شيئاً منها . ولما جاءتها رسالة التهديد لم تحفل بها كثيراً . ثم نامت ولم تدرِ ما جرى كيف جرى

وأقمتُ انتظر بريد الترنسڤال وأنا على مثل الجمر حتى وردت عليَّ بعد مضيّ شهر الرسالة التي نبّئت بها تلغرافيًا ، فنشرتها في « الأيام » وعلّقتُ عليها خواطري وظنوني وخلاصة هذه الرسالة ما يأتي : انَّ الخواجه سليم خوري ، الحمويّ الأصل والنشأة ، هاجر الى الترنسڤال منذ عشر سنوات لم يأتِ في خلالها عملاً نافعاً قط ، بل كان على العكس من ذلك فاسد السيرة ، سافل الأخلاق . وقد حكمت عليهِ محاكم جوهنسبورج ثلاث مرّات لثلاث جرائم ارتكبها كانت خاتمتها سرقة قضى أربع سنوات محبوساً من أجلها ، ولما أُخرج من السجن علق بفتاةٍ رومية مجهولة النسب فتزوّجها . وكان يُحبُّها حبًّا عظيماً ورزق منها ابنتين وولداً ذكراً

هذا مجمل ما حوتهُ الرسالة . أمَّا النيابة العمومية فاستدعت سليماً اليها على أثر ما نشرتهُ « الأيام » ولم تزل بهِ حتى أقرَّ بأنهُ هو الذي ارتكب الجناية التي اتّهم بها فؤاد افندي اليافي . قال انهُ نكب في الترنسڤال بالفقر المدقع ولم يكن يعلم انَّ عمّهُ يملك ثروة كبيرة في مصر . وقد كتب عمّهُ اليهِ في الزمن الأخير ملحًّا عليهِ بأن

يجيءُ القطر المصري فيزوّجهُ بابنتهِ الوحيدة فتحوّل اليهِ ثروة طائلة . فحار في أمرهِ بين أن يأبى وأن يقبل فإنَّ زواجهُ السابق في جوهنسبورج يحول دون زواجهِ الآخر في مصر وانَّ حبَّهُ لزوجتهِ وأولادهِ يمنعهُ من التخلّي عنهم رغم ما كان يمكن ان يعقب تخلّيهِ من الحوادث والمشاكل . ورأى من جهة أخرى انهُ اذا لم يأتِ مصر حرم مالاً وفيراً كان في اشدّ الحاجة اليهِ . لذلك وجد انَّ الطريقة المثلى ان يحتال على ثروة عمّهِ بكلّ انواع الحيل فإن لم تسعده هذه ارتكب الجناية غير هيّاب ولا وجل . وساعده على تحقيق امانيهِ وجودُ العلاقات الحبيَّة بين ادماء وفؤاد اليافي وتجاور بيتيهما . فأقام يترصد فرصة مناسبة لاغتيال الفتاة بدون ان يكون موضعاً للشبهات ولكنهُ احجم اكثر من مرّة عن ارتكاب الجناية حتى كانت ليلة الزواج وقد اطلعتهُ ادماء على رسالة فؤاد التهديدية فلم يجد خيراً من تلك المناسبة ؛ فأشار على ابنة عمهِ بوجوب الاحتفاظ بالرسالة ، على نية ان يجعلها مرشداً لرجال التحقيق ، ودليلاً يصرف شبهاتهم عنه الى فؤاد ، وقد فتح الباب ليوهم دخول القاتل منهُ ، وهو يحسب ان رسالة التهديد وفتح الباب دليلان كافيان لاثبات التهمة

. . . .

واشتهر بين الناس فضلي باستكشاف حقيقة هذه الجناية فأكبر الجميع عملي ، واعلن ولاة الأمر شكرهم لي . اما انا فلم يسرَّني هذان الإكبار والشكر بقدر ما سرَّني زواج فؤاد افندي اليافي بادماء كريمة الخواجه فرج الله خوري . وكان ذلك على اثر صدور الحكم على سليم الجاني بالاشغال الشاقة

وسيم الربّانه
صاحب جريدة الايام
ورئيس تحريرها